Received	20 April 2024	Accepted	21 April 2024
Revised	16 May 2024	Published	1 June 2024
Volume	4, June 2023	Pages	110-120
http://doi.org/			

To cite:
Ghassan Abdul Majeed. 2024. Dimashq fi 'uyun shu'ara' al-'asr al-'Uthmaniyy: dirasah jamaliyyah. *Al-Qalam International Journal of Arabic Studies.* Vol. 4 (June 2024): DOI: http://doi.org/

دمشق في عيون شعراء العصر العثماني: دراسة جمالية

Damascus in the Eyes of the Poets of the Ottoman Era: Aesthetic Study

Ghassan Abdul Majeed[1]

الملخص

تحمل دمشق في طياتها تاريخا عريقا وثقافة غنية تتجاوز الحدود الزمنية، وخلال العصر العثماني تبوأت دمشق مكانة بارزة كأحد المراكز الثقافية والفكرية، حيث توافد عليها الشعراء والأدباء من مختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي، وتميزت هذه الفترة بظهور عدد من الشعراء الذين جسّدوا جماليات المدينة في قصائدهم، مما أضفى على شعرهم طابعا خاصا يُعبر عن شغفهم وحبهم لدمشق. تتجلى في قصائد شعراء العصر العثماني مشاعر الفخر والحنين، حيث استلهموا ذلك من معالم المدينة وتاريخها الغني، بالإضافة إلى طبيعتها الخلابة، وقد استخدم الشعراء أساليب بلاغية متنوعة وصورا شعرية بديعة، مما جعل أعمالهم تعكس جمال المدينة وثراء تجربتهم الشخصية فيها، لذلك تهدف هذه الدراسة إلى تناول بعض النماذج الشعرية التي عكس الشعراء من خلالها جماليات دمشق، وكيف أسهمت هذه المدينة في تشكيل هويتهم الأدبية. ومن خلال المنهج التحليلي سنسلط الضوء في هذه المقالة على أبرز الشعراء الذين تناولوا دمشق، ونحلل نصوصهم لنتعرف على الرؤى الجمالية المختلفة التي قدموها، بالإضافة إلى التأثيرات الثقافية والاجتماعية التي كانت تعكسها تلك النصوص. إن هذه الدراسة تهدف إلى تقديم قراءة عميقة للأبعاد الجمالية في شعر العصر العثماني، مُسَلطة الضوء على دور دمشق كرمز للجمال والإلهام.

الكلمات المفتاحية: العصر العثماني، دمشق، الشعر العربي، المدينة القديمة، سوريا

[1] Faculty of Arabic, International Islamic University Islamabad, Pakistan, ghassan.abdulmajeed@iiu.edu.pk

Abstract

Damascus is one of the oldest cities in the world, as it carries with it an ancient history and a rich culture that transcends time limits. during the Ottoman era, Damascus assumed a prominent position as one of the cultural and intellectual centers, where poets and writers from various parts of the Arab and Islamic world flocked to it. this period was marked by the emergence of a number of poets who embodied the aesthetics of the city in their poems, which gave their poetry a special character expressing their passion and love for Damascus. The poems of the poets of the Ottoman era reflect feelings of pride and nostalgia, as they were inspired by the sights of the city and its rich history, in addition to its picturesque nature. the poets used various rhetorical methods and exquisite poetic images, which made their works reflect the beauty of the city and the richness of their personal experience in it. through the study of some poetic models, we seek to explore how poets reflected the aesthetics of Damascus, and how this City contributed to the formation of their literary identity. In this article, we will highlight the most prominent poets who dealt with Damascus, and analyze their texts to learn about the different aesthetic visions they presented, as well as the cultural and social influences that those texts reflected. This study aims to provide a deep reading of the aesthetic dimensions in the poetry of the Ottoman era, highlighting the role of Damascus as a symbol of beauty and inspiration.

Keywords: *Ottoman era, Damascus, Arabic poetry, old city, Syria*

مقدمة

تتبوأ دمشق مكانا رحباً من مشاعر الحب والحنين عند شعراء العصور المختلفة، حيث كانوا يتغنون بحبها ويعبرون عن شوقهم لذكرياتها، ليبرز الحنين إليها خاصة عندما يتحدث الشعراء عن فراقهم أو ابتعادهم عن المدينة، مما يعكس العلاقة القوية التي تربطهم بدمشق، وهذه المكانة لم تأتي من كون دمشق مدينة تاريخية فحسب، بل من كونها أيضا مركزا ثقافيا وفكريا جذب العديد من الشعراء والعلماء، الذين تركوا آثارهم الأدبية في المدينة، وقد كانت المدارس والجامعات تساهم في إثراء الفكر الأدبي والشعري، مما ساهم في تكوين هوية أدبية مرتبطة بدمشق. (محمد كرد علي،١٩٨٤م)

برز في الشعر العربي القديم عدد من الشخصيات الأدبية الذين كتبوا عن دمشق، مثل أبو تمام الذي له قصائد كثيرة تعبر عن جمال دمشق وثراء ثقافتها، يقول:

أيهاً دِمشـقُ فَقَـد حَـوَيتِ مَكارِماً بِـأَبي المُغيـثِ وَسُؤدُداً قُدموسا
وَأرى الزَمـانَ غَـدا عَلَيـكِ بِوَجهِهِ جَـذلانَ بَسّـاماً وَكـانَ عَبوسـا
قَـد بـورِكَت تِلـكَ البُطـونُ وَقُدِّسَت تِلـكَ الظُهـورُ بِقُربِـهِ تَقديسا

(ديوان أبو تمام، ١٩٩٠م)

والمتنبي الذي وصف دمشق في بعض قصائده، معبرا عن مكانتها بين المدن، فقال:

ولو كانت دمشق ثنى عناني ... لبيق الثّرد صينيّ الجفان
يلنجوجيّ ما رفعت لضيفٍ ... به النّيران ندىّ الدّخان
يحلّ به على قلبٍ شجاع ... ويرحل منه عن قلبٍ جبان
منازل لم يزل منها خيالٌ ... يشيّعني إلى النّوبندجان

(ديوان المتنبي، ٢٠١١م)

وغيرهم من شعراء الذين تغنوا بعبق دمشق التاريخي وبجمال طبيعتها، حتى أسهموا في تشكيل الصورة الأدبية لدمشق، معبرين عن جمالها وتاريخها ومعانيها العميقة في قلوب العرب.

دمشق عند شعراء العصر العثماني

تظلّ دمشق حاضرة في الشعر العربي، وخاصة في العصر العثماني، حيث أعطت الشعراء منصة للتعبير عن حبهم وانتمائهم لهذه المدينة العريقة، ومن خلال قصائدهم يمكننا رؤية دمشق ليست فقط كمدينة تاريخية، بل كرمز للجمال والثقافة والعراقة، ونجد شعراء هذا العصر وقد اتبعوا أساليب متنوعة، منها العمودي والتفعيلة ليعبروا عن مشاعرهم تجاه المدينة، واستخدموا الرموز والأشكال البلاغية مثل الاستعارة والتشبيه لخلق صور شعرية غنية، وعكست بعض القصائد مشاعر الشوق والحنين إلى دمشق، خاصة من الشعراء الذين عاشوا بعيدا عنها، ومن ذلك ما قاله الشاعر جرمانوس فرحات الذي استخدم المفارقات بين الجمال الطبيعي لدمشق وافتقاده لبعض العناصر الحيوية ليعبر عن حالة من الحب الممزوج بالحزن، فهو يعشق دمشق ويرى جمالها، لكنه يشير إلى تراجع بعض ملامح هذا الجمال بسبب الزمن أو التغيرات التي طرأت عليها. (محمد ألتونجي، ٢٠٠٨م)

يقول:

هذي دمشق ونارها لي جنةٌ ... بعداً لها من جنةٍ في نار
فعلت ولكن قد تناهت مذ علت ... في حسنها والنقصُ في الإدبار
كم في دمشق من المناهل شُرَّعاً ... لكنَّ شِيبَ زلالُها بِمَرار
كم في دمشق من الرياض نواضراً ... لكنْ نواضرُها بلا إسفار
كم في دمشق من الغصون موائساً ... لكن خمائلها بلا أزهار

(ديوان جرمانوس فرحات، ١٩٦٦م)

الشاعر في هذه الأبيات يعبر عن جمال دمشق بشكل مزدوج، حيث يظهر إعجابه بالمدينة وفي الوقت نفسه يعبر عن حزن دفين بسبب التحولات التي طرأت عليها، فيبدأ الشاعر بوصف دمشق على أنها جنة رغم ما يشعر به من نار داخلية، مما يعكس حباً عميقاً للمدينة، يرى فيها جمالاً يوازي الجنة، حتى لو كانت تجربته الشخصية مصبوغة بالألم، ثم يُقر بأن دمشق، رغم جمالها وفرادتها، أصبحت بعيدة أو مشوبة بالنار،

وكأن الجنة لم تعد صافية بل مشوبة بالعذاب، بعدها يعترف جرمانوس بأن دمشق وصلت إلى قمة جمالها، لكنها بعد أن بلغت هذا العلو بدأت تفقد بعضاً من رونقها، مشيراً إلى أن هذا التغير الطبيعي يُحدث نوعاً من الحزن في نفسه، وفي هذه الأثناء يستدعي وفرة المياه والينابيع في دمشق، وهي إشارة إلى خصوبة المدينة وازدهارها، لكنه في نفس الوقت يشعر بأن نقاء هذه المياه قد تعكر، مما يرمز إلى نوع من الفقد أو التدهور، ليبرز جمال حدائق دمشق بنضارتها وخضرتها، ولكنها تفتقد إلى إشراقها الكامل، ثمّ يُشير الشاعر إلى أن الجمال الخارجي لم يعد يحمل نفس السحر والتألق كما كان في السابق مع تصوير الأشجار في دمشق وهي تتمايل بجمال ورشاقة، لكنها خالية من الأزهار، مما يعكس فكرة أنّ هناك نوعاً من الجمال الخارجي الذي يفتقر إلى الحياة الكاملة أو الازدهار.

أما الشاعر مصطفى العلواني فيجسد دمشق في صورة مدينة الجمال والطبيعة الخلابة، مستخدماً العديد من الصور الحسية مثل النرجس، الورد، والندى، ليربط بين الطبيعة والشعور الداخلي بالحنين، كما أنه لا يكتفي بجمال الطبيعة، بل ينتقل إلى جمال العلاقات الإنسانية والثقافة في دمشق، حيث يجعل تبادل الأدب بين الأصدقاء جزءاً من هذا الجمال الكلي، ونلحظ أنّ الإيقاع الموسيقي للأبيات أيضاً يساهم في تعزيز هذه الصور الجمالية من خلال تكرار الأصوات الرقيقة والإيقاع المتوازن، مما يعكس حالة الصفاء والانسجام في وصف دمشق، يقول:

قلب له بين الضلوع خفوق ... عن حمل أعباء البعاد يضيق
ما زال يذكر من دمشق مسرة ... تصفو مناهل أنسها وتروق
جاد الحيا منها رياضاً قد حلا ... فيها اصطباح مؤنس وغبوق
ما ثم إلا نرجس أو وجنة ... للورد كللها الندى وشقيق
وتطارح الآداب بين أحبة ... كل بساحر لفظه منطيق

(المرادي، ١٩٨٦م)

في هذه الأبيات يعبّر العلواني الشاعر عن حبه وحنينه إلى مدينة دمشق من خلال صور جمالية وحسية تعكس ما تحمله هذه المدينة من جمال وسحر، فبدايةً يقدم صورة داخلية وعاطفية، حيث يظهر القلب وكأنه يتألم ويضيق من البعد عن دمشق، والتصوير القلبي كما نعرف يعبر عن شدة الشوق والحنين، مما يجعل البعد أشبه بحمل ثقيل لا يستطيع تحمله، ثم يوضح الشاعر كيف أن ذاكرته تحافظ على ذكريات سعيدة ومبهجة من دمشق، حيث يشير إلى "مناهل الأنس" التي تتصف بالصفاء والنقاء وهنا نرى كيف يستخدم الشاعر مفردات الإشراق والنقاء، مما يعكس حالة من الهدوء والصفاء التي عاشها في دمشق، بعدها يشير العلواني إلى جمال الطبيعة في دمشق، حيث يتحدث عن الرياض التي جاد عليها المطر، ليجعلها حلوة ومبهجة، فالأجواء هنا دافئة وتُبرز جمال الطبيعة في دمشق من خلال ثنائية الصباح والمساء (اصطباح مؤنس وغبوق)، مما يعطي إحساساً بوفرة الجمال والراحة في كل أوقات اليوم، ثم يقدم صورةً جمالية مذهلة للطبيعة في دمشق، فهو يصف كيف أن المدينة مليئة بالأزهار الجميلة مثل النرجس والورد، وكيف أن الندى يكمّل جمالها. الصورة تعكس التناغم بين عناصر الطبيعة، وتبرز جمال الأزهار التي ترمز

للحب والشغف، وأخيراً يركز الشاعر على الأجواء الثقافية والاجتماعية في دمشق، حيث يُظهر تبادل الأدب بين الأصدقاء والأحبة، وهذا البيت يعكس جانباً فكرياً وثقافياً للمدينة، إذ إنّ تبادل الآراء والآداب يُبرز جمال الفصاحة والبلاغة في دمشق، مما يزيد من جاذبيتها.

ونلحظ جماليات التصوير المرئي عند الشاعر ابن الراعي، حيث يعتمد بشكل كبير على تصوير جمالي بصري قوي، مثل تصوير الأنهار كالنجوم، وتصوير المدينة كجنة على الأرض، وهذه الصور تعزز الإحساس بأن دمشق ليست مجرد مدينة، بل هي أسطورة من الجمال والرفاهية، إضافة إلى ما يقوم به من المقارنات الفخمة، كالمقارنة بين دمشق والجنة، أو الشامة والدينار، وهذا يخلق حالة من التبجيل والتقدير، حيث يوحي الشاعر بأن دمشق تتجاوز كل المدن في جمالها وقيمتها، يقول:

هـذي دمشـق الشـام دارُ اللهـو	فاسـند حـديثي عـن رباهـا وارِوِ
حـاكت جنـانَ الخلـد عنـد العرض	بـل قيـل عنهـا جنـة فـي الأرض
بـل شـامة الـدنيا وعيـن الملكِ	وتعـرف الـدينار عنـد السبك
أنهارهـا عـدّ النجـوم الزُّهـر	وليـس إلا فـي ريـاض تجـري
وكـل روض فـي مثـال الجنّـه	واقٍ لإخـوان الصـفا كـالجُنّه

(إحسان خلوصي، ١٩٩٤م)

الملاحظ هنا هو أنّ الأبيات تحمل إيقاعاً موسيقياً ناعماً ينسجم مع الصورة الجمالية الهادئة والمثالية التي يحاول ابن الراعي إبرازها عن دمشق، مع الرمزية الأخلاقية حيث يشير إلى دور دمشق كملاذ للأصدقاء وللصفاء الروحي، مما يضيف بُعداً أخلاقياً وجمالياً للنص، حيث تصبح المدينة رمزاً للمحبة والراحة، فأوّل الأمر يقدّم وصفا جماليا مدهشا لمدينة دمشق من خلال تصويرها كجنة على الأرض، وهو يدمج بين الجمال الطبيعي والمكانة التاريخية للمدينة بأسلوب بديع وذلك في أنها مدينة مليئة بالمتعة واللهو، وكأنها مكان مثالي للراحة والاستمتاع، ويشير إلى أن الحديث عنها يحتاج إلى من يسنده ويرويه، ما يضفي شعوراً بالعظمة والفخر بجمالها الفريد، ثم ينتقل إلى مقارنة دمشق بالجنة، ويصفها بأنها تحاكي جنان الخلد، مما يوحي بأن جمالها يفوق الوصف البشري، فعبارة "جنة في الأرض" تستخدم تعبيراً تقليدياً ولكن بقوة دلالية كبيرة، مما يعكس الجمال السماوي الذي يتمثل في دمشق، بعدها يعزز مكانة دمشق بوصفها "شامة الدنيا"، مما يعني أنها أجمل وأبرز مدينة في العالم، مثل الشامة التي تميز الوجه بالجمال، كما أن "عين الملك" تشير إلى قيمتها العالية والمكانة الخاصة التي تحتلها، وهذه العبارة تشكل صورة لدمشق كرمز من رموز الجمال والملكية الرفيعة. مقارنة دمشق بالـ"دينار" الذي يُعرف عند السبك تعني أن جمالها لا يظهر إلا عندما يُختبر ويُقدَّر، وفي البيت الرابع يُبرز الشاعر جمال الطبيعة في دمشق من خلال وصف أنهارها بأنها مثل النجوم الزهر، تعبيراً عن كثرتها وإشراقها، تلك الأنهار تجري في رياض جميلة تضفي على المدينة جواً من الانتعاش والنقاء، وهو وصف شاعري يعكس الجمال الطبيعي الذي يتخلل كل جوانب المدينة، أخيراً يقدم الشاعر صورة متكاملة عن دمشق بأنها جنة للأصدقاء والمحبين، حيث تتشابه رياضها بالجنة الحقيقية.

الإشارة إلى "إخوان الصفا" تضفي بعداً ثقافياً وأخلاقياً، حيث يصف دمشق كملاذ للأصدقاء والمحبين، مكان للصفاء الروحي والجمال الحسي.

ومن الشعراء الذين أبدعوا في استخدام التصوير البصري لإبراز جمال دمشق، الشاعر ابن النقيب، فنجد عنده مزجا بين الطبيعة والإنسان في دمشق، فهو يرى أن الطبيعة تعكس الطيبة والكرم، وتعمل كرمز للتآلف الاجتماعي، ما يُعطي دمشق طابعا مميزا كمدينة تجمع بين الجمال المادي والمعنوي، يقول:

حيّا دمشق فما أرق نسيمها	حملت على الكَرم الطباعَ فأثّرا
بلدٌ زرى بالشِعب مَوْردُ طيبها	وزهت على نهْرِ الأُبُلَّة منظرا
وسقى رياض النيْربين فكم بها	بمُنى فضينا منه حظاً أوْفَرا
نَغْدوا فَنهْصرُ للتآلف بيننا	غُصنْاً تَورّد بالصفا وأثمرا
ونروّح الأطيار تندب شَجْوها	فَكَأنَّ في اللَّهوات منها مزهرا

(ديوان ابن النقيب، ١٩٦٥م)

يستخدم ابن النقيب التكرار والتناغم في الألفاظ مثل "تورد"، "أثمر"، "شجوا"، وهي كلمات موسيقية تضيف إيقاعا لطيفا للنص، ما يجعله قريبا من التذوق السمعي كما هو قريب من التذوق البصري، وعبارات مثل "النسيم الرقيق"، "نهر الأبلة"، "رياض النيربين"، وغيرها، ما يخلق صورة حية ودقيقة لجمال المدينة، مع لمسة من الحنين والحب العميق للمدينة، حيث يظهر الشاعر شوقه لدمشق ولأجوائها الطبيعية والاجتماعية، وهو ما يعزز إحساسا بالتقدير العالي لهذه المدينة.

يبدأ ابن النقيب بيته الأول بتحية دمشق ويصف نسيمها برقة شديدة، الرقة هنا ليست مجرد وصف للنسيم، بل تعبير عن طبيعة المدينة الجميلة التي تؤثر في النفوس، وربط النسيم بالكرم يشير إلى أن جمال الطبيعة في دمشق ليس فقط بصريا، بل يمتد إلى طبع أهلها المتميز بالكرم والسخاء، فكلمة "أثر" تعكس تأثير هذه المدينة على من يعيش فيها أو يمر بها، ما يعزز فكرة أن المدينة تؤثر في النفوس مثلما يؤثر النسيم اللطيف في الطبيعة، ثمّ يبرز الشاعر مكانة دمشق من خلال مقارنة جمالها بالطبيعة، إذ يصف دمشق بأنها تفوق وادي الشعب بطيبها، و"الطيب" هنا يحمل دلالات روحية وجسدية، إذ يشير إلى جمال المدينة وعطرها. ثم يشير إلى نهر الأبلة، وهو رمز آخر للجمال الطبيعي والماء العذب، ما يعزز صورة دمشق كمدينة تفوق الجمال الطبيعي حتى في أحسن أمثلته، واستخدام كلمة "زهت" يوحي بأن دمشق مزدهرة بجمالها الطبيعي، وكأنها تجسد الأنوثة والنعومة في مظهرها، وفي البيت الثالث يشير ابن النقيب إلى رياض النيربين في دمشق، موضحاً أن تلك الرياض الجميلة كانت مكانا للتمني والأحلام التي تحققت، ويُظهر البيت الجمال الطبيعي في تلك الحدائق وما توفره من راحة وسكينة للنفوس، أما كلمة "فضينا" تعبر عن التواصل والانتماء بين الشاعر والمكان، وكأن المكان يمنح الناس حاجاتهم الروحية والمادية بسخاء، ثم يعبر الشاعر عن روح الصداقة والتآلف بين الناس في دمشق، فتصوير الغصن المتورد بالصداقة والألفة يشير إلى جمال العلاقات الإنسانية التي تنمو في هذه البيئة الطبيعية الرائعة. وهو استخدام جميل للتشبيه، حيث يشبه الصداقة بشجرة تحمل غصناً مثمراً، "التورد" و"الإثمار" هي إشارات إلى أن الجمال الطبيعي يمتزج بجمال العلاقات

الاجتماعية في دمشق، والحق يُقال إن ابن النقيب ينقل لنا صورة شاعرية للطبيعة من خلال تصوير الأطيار التي تندب شجوها، وهو تعبير عن أن حتى الطيور تشارك في التعبير عن المشاعر في هذه المدينة الجميلة. وكأن الأجواء نفسها تمتلئ بالشجن، لكن بطريقة جمالية تستحضر السعادة والراحة، فالبيت هذا تحديداً يعبر عن أنّ المتعة في دمشق ليست مجرد لذائذ مادية، بل هي أيضا متعة روحية، حيث يتداخل الجمال الطبيعي مع الحالة النفسية لسكان المدينة.

وبالعودة إلى الانسجام بين الطبيعة والروح، وجعل المشاهد الطبيعية تبدو وكأنها لوحات متحركة أمام العين، واستخدم البرق والنسيم كرمزين للمشاعر والذكريات، حيث يظهر البرق كرمز للشوق والحنين، والنسيم كوسيلة لجلب الذكريات الجميلة وإبراز مدى تعلق الشاعر بالمكان، يقول أبو المعالي الطالوي:

ألاحَ لِبَـرقِ الشـامِ وَهـوَ مَليـحُ	عَشـيَّةَ وافـى الـرومَ وَهوَ طَليحُ
سَرى نَحوَهُ مَسرى الخَيال فَهاجَهُ	إِلـى الرَبـع وَجدٌ بـارِعٌ وَسَنيحُ
وَذكَّـره مَسـراه بِالشـام رَبرَباً	نَسـيمٌ بِأكنـاف اللِـوى وَتَريـحُ
بِـــوادٍ عُلاهُ رَبـــوَة وَقَـــرارُه	لُجَيـنُ مِيـاهٍ في البِطاح تَسيحُ
إِلى ظلِّ أحوى مِنـهُ مُنبَجِس غَـدَت	تُعَـلُّ بِـهِ الأَرواحُ وَهـوَ صَحيحُ

(درويش بن أحمد الطالوي، ١٩٨٣م)

يعبر الطالوي عن دمشق من خلال رؤية شاعرية عميقة للجمال الطبيعي، حيث يجسد الطبيعة كوسيلة لشفاء الروح واستحضار الذكريات الجميلة، ما يجعل دمشق مكانا مميزا يجمع بين جمال الطبيعة وصفاء الروح، فيبدأ بوصف رؤية برق الشام، مشيرا إلى جماله وسحره، إذ يستخدم كلمة "مليح" للإشارة إلى الحسن والجمال، والربط بين البرق وجمال الشام يُعزز المشهد البصري في ذهن القارئ. إنّ وصف البرق بأنه "طليح" يُشير إلى أنه تعب أو متثاقل يعكس مدى الشوق والحزن الذي يشعر به الشاعر تجاه دمشق، وكأن البرق ذاته يعكس مشاعره، ثم يصف رحيل البرق وكأنه خيال يطير في السماء، ما يجعل المشهد أكثر شاعرية وحيوية، فكلمة "الوجد" تشير إلى الشوق والحب العميق، ويصفه بأنه "بارع" و"سنيح"، ما يضفي على المشهد إحساسا بالجمال والروحانية، وهنا نجد صورة شعرية تعتمد على الخيال، إذ يستخدم الشاعر البرق كرمز لشوقه وحنينه إلى الشام، ويعكس هذا الشوق شعورا عميقا بالتعلق بالمكان، ثم يأتي ذكر نسيم الشام الذي يُثير الذكريات، واستخدام كلمة "رَبربًا" يعكس خفة النسيم ورقته، ما يعزز الشعور بالرقة والحنين. النسيم هو عنصر طبيعي يجلب معه الذكريات والأحاسيس المرتبطة بالمكان، أما "أكناف اللوى" تشير إلى الأماكن المرتفعة في الشام، وهو ما يضيف عمقا لجمال المدينة الطبيعية. ويستخدم الشاعر النسيم كرمز للذاكرة التي تعود إليه مع كل نسمة تمر، وفي قوله: "بِـــوادٍ عُلاهُ رَبـــوَة وَقَـــرارُه.... لُجَيـنُ مِيـاهٍ في البِطاح تَسيحُ"، يصف الطالوي منظرا طبيعيا في وادٍ مرتفع، حيث تكون المياه المتدفقة بمثابة فضةٍ تسيل، في إشارة إلى النقاء والجمال الطبيعي. كلمة "لجين" توحي باللمعان والبريق، ما يضفي بُعدًا بصريًا ساحرًا على الصورة، و"تسيح" توحي بالحركة والانسيابية، ما يُعطي للمشهد

ديناميكية ويجعل القارئ يشعر وكأنه يرى المياه تتدفق أمامه، ثم ينتقل الشاعر إلى وصف شجرة مظللة "أحوى" ينبع منها ماء نقي، وتصف الشجرة بأنها تمنح الأرواح الانتعاش والراحة، وكلمة "تُعلّ" تعني أن الأرواح ترتوي وتستعيد عافيتها، ما يُشير إلى أن دمشق ليست فقط مكانا للجمال الطبيعي، بل أيضًا مكان للشفاء الروحي والراحة النفسية.

ومن شعراء العصر العثماني الذين استطاعوا المزاوجة بين الطبيعة والعاطفة، الشاعر شهاب الدين الخفاجي الذي استخدم صورا طبيعية للتعبير عن مشاعر الشوق والحنين العميقة لدمشق، فلعبت الطبيعة عنده دورا حيويا في تصوير الشوق والوداع لهذه المدينة الساحرة، يقول:

آهِ واشوقاهُ مِتُّ أسًى		هل دُنُوٌّ للذي نزحَا
إن شدتْ ورقاءُ في فَنَنٍ		شدوُها زندَ الجوَى قدَحَا
وإذا ما شامَ طرفَ الشَّ		امِ طرفِي للدِّما سفحَا
يا سقى وادي دِمشقَ حياً		طاب مغتبقاً ومصطبَحَا

(المحبّي، ١٩٨٣م)

إنّ استخدام التشبيهات مثل: "شدوها زندَ الجوَى قدَحَا" يعكس حيوية العاطفة ويُعبر عن العلاقة الوثيقة بين صوت الطبيعة والشوق المتأجج في قلب الخفاجي، وهذا التشبيه يُعطي القصيدة طابعا دراميا مؤثرا ويُظهر التفاعل القوي بين الشاعر والبيئة المحيطة، بالإضافة إلى التكرار الصوتي، فاستخدام حرف "الشين" في كلمات مثل "شام" و"الشم"، و"الشوق" يُضفي على الأبيات موسيقى داخلية ناعمة ومؤثرة، ما يزيد من وقع الحنين والشجن، وما الدعاء في البيت الأخير إلا انعكاس لرغبة الشاعر في أن تبقى دمشق جميلة وغنية بالحياة، فالمعروف أنّ الدعاء هو أسلوب يعزز الإحساس بالانتماء إلى المكان ويعكس التعلق الروحي العميق بالمدينة.

يفتتح الخفاجي الأبيات بصرخة حزن وحنين "آهِ واشوقاهُ"، وهو تعبير واضح عن الأسى والشوق العميق، واستخدامه لصيغة "آهِ" يعكس مشاعر الألم، ما يجعل بداية القصيدة ذات طابع عاطفي قوي، ثم يتساءل الشاعر فيما إذا كان بإمكانه أن يقترب مجددا ممن نزح بعيدا، وهنا يُبرز تجربة الفراق بطريقة شعرية مؤثرة، ما يُضفي على النص عمقا عاطفًا، فمثل هذه التساؤلات تضفي على الأبيات طابعا من التأمل والحزن، ثم يصور في البيت الثاني الطبيعة باعتبارها انعكاسا لمشاعره الداخلية، فالطير الذي يغني "ورقاء" فوق الغصن يعكس حالته العاطفية، "الورقاء" رمز للغربة وصوتها المليء بالشجن يُعيد إشعال نار الحنين في قلب الشاعر، واستخدام الشاعر لتشبيه "شدوها زندَ الجوَى قدَحَا" يعكس حيوية الإحساس، حيث يشبه الشدو بقدح الزند (أي إشعال النار)، ما يعبر عن شدة الشوق الذي يتأجج في قلبه مع كل صوت يسمعه من الطبيعة. هذا التشبيه يعطي النص طابعا ديناميكيا ويُظهر التفاعل بين الطبيعة والمشاعر، ثم يأتي البيت الثالث ليعبر الخفاجي عن حالة البكاء والحزن عندما يُلقي بنظره على الشام (دمشق)، فكلمة "شامَ" تشير إلى النظر من بعيد، وكأن الشاعر يتأمل المدينة الحبيبة من مسافة ويشعر بالألم العميق لفراقها، و"سفحَ الدِّما" هنا قد يشير إلى الدموع التي تسقط بسبب الحنين، ما يعزز شعور الشاعر بالأسى ويُضيف

بعدا رمزيا للدموع باعتبارها تعبيرا عن الحزن الذي لا يُحتمل، ويختتم هذا الكم الهائل من المشاعر بصيغة الدعاء لوادي دمشق بأن يُسقى مطرا، مما يعكس الحنين الدائم إلى جمال دمشق. "الحيا" تعني المطر ويعبر الشاعر عن أمله بأن تظل دمشق خضراء ومثمرة، ووصف "مغتبقا ومصطبحا" يشير إلى توقيته الزمني المثالي، سواء في الصباح أو المساء، ويُعزز من فكرة الاستمرارية والجمال الأبدي للطبيعة في دمشق. هذا الختام يضفي على النص إحساسًا بالتفاؤل والرغبة في العودة إلى المكان الذي يحبه.

وفي دائرة الدعاء بالسقيا لدمشق يحوم الشاعر أحمد بن حسين الكيواني، فيقول أبياتا تحتفي بجمال دمشق وتعكس عشق الشاعر للمدينة من خلال وصفها بأبهى الصور الطبيعية والبشرية:

سَقى دِمَشق وَمَن فيها بِما رَحبت ... مِن الغَمام السَواري كُلَّ منهمر
أرضٌ بِها كُلَّ فتان مِن البَشَر ... يَزهو عَلى الحور بِالألحاظ وَالحور
أرضٌ بِها رقت الأرواح فَاعتَدَلَت ... فَلَيلُها أَبَداً في رقة السحر
وَمِن صَفا مائِها تَبدو ضَمائِرُهُ ... فَكُلُ ما قَد طَواهُ غَير مُستَتَر
كَأَنَّهُ ذائب البَلور حَيث جَرى ... يَجري عَلى الماس وَالعقيان وَالدُرر

(أحمد الكيواني، ١٨٨٤م)

يبدأ الكيواني الأبيات بالدعاء لدمشق وأهلها بسقيا الغمام، وهو تعبير شائع في الشعر العربي التقليدي، واستخدام "الغمام السواري" يشير إلى المطر الغزير والواسع الذي يغطي المدينة بكاملها، مما يضفي إحساسا بالبركة والخير، وهذا يعكس الخصوبة والرخاء، مما يعزز من تصور المدينة كجنة مزدهرة دائما، ثم ينتقل الشاعر في بيته الثاني إلى وصف أهل دمشق، ليُبرز جمال سكانها بأنهم "يفوقون الحور العين"، وهو تشبيه يوحي بجمالٍ فائق وغير عادي، "فالألحاظ" تشير إلى النظرات الساحرة، و"الحور" إلى البياض الناصع في العين، مما يعكس حسن الشكل والروح، ولا يخفى أنّ استخدام التوازي بين "الألحاظ" و"الحور" يعزز من التوازن الجمالي في الوصف، ويعطي انطباعا بأن المدينة وأهلها كلاهما يساهمان في هذا الجمال المذهل، ثم يعود في البيت الثالث إلى وصف الروحانية العالية التي تسود المدينة، حيث يُشير إلى أن الأرواح تصبح رقيقة في دمشق، من خلال مقارنة ليالي دمشق بالسحر، وهو تعبير عن جمال الليل فيها والجو الذي يسوده، مما يعزز من الإحساس بالسكينة والهدوء الروحي، أما التشبيه بـ"رقة السحر" يوحي بلياٍل غامضة وساحرة، مما يخلق إحساسا بالجاذبية والتأمل في جمال المدينة حتى في الليل، ثم ينتقل الكيواني إلى وصف الماء في دمشق، حيث يبرز صفاء الماء لدرجة أن الضمائر والأسرار تنكشف من خلاله، ويشير الشاعر إلى أن الماء في دمشق نقي وشفاف لدرجة أن ما هو مختفٍ أو مضمر في الأعماق يبدو جليا للعين، ومثل هذه الصورة تعزز النقاء والوضوح، وتشير إلى أن الطبيعة في دمشق تكشف عن أسرارها بطريقة جميلة ومشرقة، مما يخلق علاقة قوية بين الإنسان والطبيعة، وليؤكد فكرته أكثر يشبه الشاعر الماء في دمشق بـ"ذائب البلور"، مما يعكس شفافيته وتألقه، ويضيف أيضًا بأن الماء يجري فوق الماس

والعقيق والدرر، وهو وصف ساحر وجميل يعكس ثراء وجمال الطبيعة في دمشق، هذه الصورة تعطي انطباعا بأن المدينة مزينة بالأحجار الكريمة، مما يجعلها تبدو كمدينة خيالية وجنة على الأرض.

وفي سياق استخدام لغة تعبيرية قوية يبرز من خلالها الجمال الروحي والطبيعي لدمشق، وتصوير المدينة كرياض نادرة يجعلها تبدو كجنة على الأرض من جهة، وتصوير كيف تزول الهموم بالنظر إليها يعزز فكرة أن دمشق ليست مجرد مكان، بل هي مصدر للشفاء الروحي والنفسي، يقول الأمير منجك باشا:

دِمَشق بِها أضحى رِياض نَوادر بِها يَنجَلي عَن قَلب ناظِرِها الهَمُّ
عَلى نَفسِهِ فَليَبكِ مَن ضاعَ عُمرَهُ وَلَيسَ لَهُ مِنها نَصيب وَلا سَهمُ

(منجك باشا، ١٨٨٤م)

تتجلى في هذين البيتين العلاقة العاطفية العميقة بين الإنسان والمكان، فدمشق تمثل أكثر من مجرد مكان مادي، إنها مدينة تحمل في طياتها جمالا أخّاذا يلامس النفس ويؤثر في مشاعر الإنسان، وينقلنا أسلوب منجك من الإعجاب بالجمال إلى التأمل في الحياة والفرص الضائعة، مما يعطي ما قاله بعدا فلسفيا، فالحياة التي تُعاش دون التعرف على جمال دمشق هي حياة ناقصة وفقا للشاعر منجك.

وإذا ألقينا نظرة على جوهر الجمال في هذين البيتين نجد أن منجك يصف دمشق بأنها مدينة مليئة بالحدائق الفريدة، حيث كلمة "رياض" تشير إلى البساتين والحدائق، و"نَوادر" تعني الشيء النادر والاستثنائي، وهذا الوصف يعطي انطباعا بأن جمال دمشق لا يشبه أي مدينة أخرى، بل هو جمال استثنائي وفريد، حيث يشير إلى أن هذه المدينة مليئة بالطبيعة الخلابة التي تجعلها مكانا للهدوء والجمال، فهي ليست مجرد مدينة بل واحة من الجمال الطبيعي الذي يُريح العين والقلب، وفي قوله: "بِها يَنجَلي عَن قَلب ناظِرِها الهَمُّ" تعبير عن أثر دمشق النفسي على الزوار أو سكانها، حيث إنّ مجرد النظر إلى جمالها كفيل بأن يزيل الهموم، هذا التصوير يجعل من دمشق علاجا روحيا لمن يعاني من الأعباء النفسية، واستخدام كلمة "ينجلي" يعطي انطباعا بأن الهموم تتبخر وتزول بسهولة عند رؤية جمال المدينة، مما يعزز صورة دمشق كمدينة تبعث على الطمأنينة والراحة، ثم ينتقل الشاعر إلى نبرة تأملية، حيث يُظهر نوعا من الأسف والحسرة تجاه من لم يحظَ بفرصة الاستمتاع بدمشق، فعبارة "فليَبكِ" تعكس الندم والحزن على فرصة ضائعة، وكأن الحياة بلا دمشق لا تكتمل، أما قوله: "وَلَيسَ لَهُ مِنها نَصيب وَلا سَهمُ" تأكيد على الخسارة العظيمة لمن لم يعرف جمال دمشق، حيث إنّ "نصيب" و"سهم" يرمزان إلى الفرص القيمة التي قد تفوت الإنسان إذا لم يحظَ بفرصة التمتع بجمال المدينة، يعكس هذا البيت الشعور بأن دمشق هي كنز روحي وجمالي، ومَن لم يزُرها فقد حُرم من فرصة الاستمتاع بجمال نادر وثمين.

النتائج والتوصيات

وجدنا من خلال صفحات هذه الدراسة أن دمشق كانت ولا تزال مصدر إلهام لا ينضب للشعراء، ليس فقط لجمال طبيعتها الخلابة، بل لأنها تمثل رمزاً للحضارة والثقافة العربية، وقد صوّر شعراء العصر العثماني المدينة بعمق وإحساس مميز، حيث جسّدوا فيها امتزاج التاريخ بالحداثة، والعراقة بالجمال الطبيعي،

فكانت دمشق في قصائدهم أكثر من مجرد مدينة، كانت ملهمة الروح والشعور، يعبرون من خلالها عن الشوق والحنين، وعن ارتباطهم العاطفي بالأرض والمكان، حيث استلهم الشعراء من طبيعتها الغناء ووديانها الخصبة وسحر جبالها، فضلاً عن دورها الحضاري والثقافي الذي جعلها منارة في عصور عديدة.

كشفت هذه الدراسة عن قدرة الشعراء في التعبير عن الجمال بطرق إبداعية، وكيف أن دمشق لم تكن مجرد مشهدٍ جغرافي، بل فضاءً روحيا وفكريا أبحروا من خلاله في عوالم الخيال. إن تناولهم للجماليات في المدينة يعكس التمازج بين التراث والطبيعة، مما أضفى على القصائد طابعاً فريداً يمزج بين الحب للوطن والانتماء لجمال المكان، ليبقى دور دمشق في الشعر العربي، وخاصة في العصر العثماني، شاهداً على مكانتها في الوجدان الشعري، حيث استحوذت على قلوب الشعراء وأقلامهم، فكانت دمشق قصيدة بحد ذاتها.

أما التوصيات فيمكن إجمالها في نقطتين، الأولى: تتبع الحديث عن المدن التي تعد مراكز للحضارة كدمشق وبغداد وغيرها في كتب التراث العربي ودواوين الشعراء الأقدمين؛ لإبراز القيمة الحضارية لهذه المدن. الثانية: البحث عن كيفية تأثر الشعراء بثقافات المدن القديمة، وكيف تفاعل الشعراء مع التراث المحلي، سواء عبر الاقتباسات الأدبية أو استلهام الفنون التراثية.

المراجع

1. Ahmad, A. 1884. *Diwan Ahmad Al-Kiywani*. al-Matba‘ah al-Hanafiyyah.
2. Ali, M. K. 1984. *Dimashq madinat as-sihr wa ash-shi‘r.* Dar al-Fikr al-Islami.
3. al-Khiyyat, M. 1973. *Diwan Abu Tammam At-Ta’i, tahqiq Muhyi ad-Din al-Khiyyat*. Dar al-Ma‘arif al-‘Umumiyyah.
4. al-Muhibbi, A. F. 1983. *Nafhat Ar-Raihanah wa Rashhat Tila’ Al-Hanah, tahqiq Abdul Fattah al-Hilu*. Dar Ihya’ al-Kutub al-‘Arabiyyah.
5. al-Muradi, A. F. 1986. *Silk Ad-durar fi A‘yan al-Qarn ath-thani ‘ashar*. Dar Ibn Hazm.
6. al-Talawi, D. A. 1983. *Sanihat duma al-qasr fi mutarahat duma al-‘asr*. ‘Alam al-Kutub.
7. al-Tunji, M. 2008. *Al-ittijahat ash-shi‘riyyah fi bilad ash-Sham fi al-‘asr al-‘Uthmani.* Ittihad al-Kuttab al-‘Arab.
8. Farahat, G. 1966. *Diwan jirmanus farahat*. al-Matba‘ah al-Kathulikiyyah.
9. Ibn al-Mutanabbi, A. T. 2011. Diwan Al-Mutanabbi. Dar al-Kitab al-‘Arabi.
10. Ibn al-Naqib, A. R. B. 1965. *Diwan Ibn Al-Naqib*. al-Majma‘ al-‘Ilmi al-‘Arabi.
11. Khulusi, I. B. S. 1994. *A‘lam al-fikr fi Dimashq bayn al-qarnayn al-awwal wa ath-thani ‘ashar lil-hijrah*. Dar Ya‘rub.
12. Munjik Basha, A. 1884. *Diwan al-Amir Munjik Basha*. al-Matba‘ah al-Hanafiyyah.